روح رجب وقضية فلسطين

الأخ : ن. أبو جهاد

نعيش هذه الأيام شهر رجب الكريم ، إلاّ أنّ معظمنا كمسلمين لا يزال يشعر بالارتباط بالتأريخ الميلادي فلا يكاد يشعر بروح شهر رجب .. ولو سألت أحدنا –وهو في النصف الأوّل من رجب– عن تاريخ يومه لأجاب على البديهة إنّه يوم كذا من أيّار (مايو) أو لو سألته –وهو في النصف الثاني من رجب– لأجاب على البديهة ، إنّه يوم كذا من حزيران (يونيو)

ولو أنّ الأمر أمر تسميات أو أمر تسهيل معاملات –كما يزعم البعض– لهان وسهل تجاوزه مع الزمن ، أو سهل الخروج منه بالحجّة والإقناع .. ولكنّ الواقع هو أنّنا لا (نستعمل) التأريخ الميلادي بل نعيشه .. أو أنّه هـــو الـــذي يطوينا في أحداثه ، ويطوي أحاسيسنا ووعينا لذاتنا من حيث ندري أو لا ندري

والواقع أيضاً أنّه لا يغلب علينا أمر التأريخ بتأريخ لا يصدر عن تاريخنا فحسب ، بل ويغلب علينا الاستسلام لما يصنعه أصحاب ذلك التاريخ من أحداث أيضاً ، فإذا بنا فيها –وهو تطوينا– أشبه بالمتفرّجين أو الضائعين ، وكأنّنـــا ولدنا في غير أرضنا ، والحال أنّ أرضنا وما عليها لم تعد لنا ، منذ فصلنا بين أنفسنا ، وبين وعينا لتاريخنا وإحـــساسنا بذاتنا

* * *

في شهر رجب الكريم –كما تروي أرجح روايات السيرة– كان الإسراء من البيت الحـــرام إلى بيـــت المقـــدس والمعراج من الأقصى إلى السموات العلى ..

في ليلة السابع والعشرين من رجب الكريم سنة 593هـ كان تحرير بيت المقدس من احتلال الصليبيين علـــى يـــد صلاح الدين وجنده الأطهار

وفي شهر رجب عام 1388هـ كان إحراق جانب المنبر الذي نصبه صلاح الدين في الأقصى على يد اليهود بعـــد احتلالهم النصف الثاني من بيت مقدسنا

في منتصف شهر أيار (مايو) عام 1948م كانت النكبة الأولى في فلسطين .. أرض الإسراء والمعراج

في السادس من حزيران (يونيو) عام 1967م كانت النكبة الثانية في فلسطين .. أرض الإسراء والمعراج

في منتصف أيار (مايو) عام 1970م كان ما أسماه السادات (ثورة تصحيحية) أزال بها نفوذاً يسارياً وبدأ بها عهد حكمه الذي وصل هذه الأيام إلى نفوذ غربي بديل ونكبة ثالثة لحقت بمصر مع فلسطين

* * *

إنّ قضيتنا في فلسطين ، لا تقتصر على حقيقة تخلٍّ من جانب أنظمة حكم ليبرالية واشتراكية ، ملكية وجمهورية ، عن حمل مسؤوليتها كما ينبغي ، وحقيقة تفريطها المرّة بعد الأخرى بحقوق الشعوب التي تتحكّم فيها ..

ولا تقتصر على خيانات وقعت وتقع ، ومؤامرات دُبّرت وتدبّر ، ومساومات تُعلن أو تخفى وهي في الحالين تنفذ ..

إنّ قضيتنا في فلسطين ضاعت معالمها في واقع فكر الكثيرين ، وفقدت مكانتها في وعي الكثيرين .. لأنّ غالبيـــة أبناء بلادنا أصبحت تعيش في روح مايو ويونيو من دون روح رجب الكريم ..

وربّما ذُكرت القدس فتكوّنت لجنةٌ شعبية أو رسمية تتحدّث ليل نهار عن القدس .. ثمّ ماذا ؟ .. ليس يُسمح لها – إن كانت شعبية– أن تتجاوز حدود الكلام ، وليس يدخل في صلاحياتها –إن كانت رسمية– أن تتجـــاوز حـــدود البيانات إلى الإجراءات ..

وربّما ذُكر الأقصى فأقيمت احتفالاتٌ بذكرى الإسراء والمعراج ، وألقيت كلمات حماسية لاهبة عـــن إحـــراق المسجد الأقصى في شهر الإسراء والمعراج ، بل وعن واجب تحرير مدينة الإسراء والمعراج .. ويشارك في ذلك كلّـــه كثيرٌ من الرسميين ، ويشارك فيه من يعملون على المستويات الشعبية كما يقولون .. ثمّ ماذا ؟ .. ينتظر الجميع عودة الذكرى بعد عام ، لتكرار ما كان .. وزيادة

أمّا إذا ذُكرت نكبة عام 48م ونكبة عام 67م وما وقع بينهما وقبلهما وبعدهما من نكبات .. فهنا يدور الحديث عن الإجراءات ، وعن السياسة العربية ، وعن النضال الفلسطيني ، وعن مواقف الدول الـــشرقية والغربيـــة ، وعـــن ضرورة التسلّح أو ضرورة الشكوى لدى المنظمات الدولية ، وعن دور الشعب في كلّ دولة .. أن يقـــف وراء مـــا يقرّره نظام الحكم في الدولة ، حفاظاً على مصلحة القضية وخدمةً للقضية ..

ولو كانت تلك الإجراءات والسياسات والمواقف والشكاوى .. بل وفرض ما يريد الحـــاكم علـــى الـــشعب ، أسفرت أو تسفر عن شيء آخر سوى المزيد من النكبات ، لهان الخطب بعض الشيء ، ولَقال المسلم المخلص فليصلوا إلى هدف التحرير الكامل بوسائلهم التي اختاروها لأنفسهم ، ومن منطلق المبادئ التي استغنَوا بها عن مبدأ أمّتـــهم .. ولكن أشدّ وجوه النكبة إيلاما .. أنّهم لا يصلون ومع ذلك فهم مصرّون على استمرار الدوران مع حجر الطـــاحون

في حلقة مفرغة ، إن أسفرت عن نتيجة ، فلا تسفر إلاّ عن المزيد من التيه والضياع .. في عصر النكبات الحديث من القرن الميلادي العشرين

* * *

من الأمثال التي يتداولها شعبنا الطيّب : من أنكر أصلَه فلا أصل له

وأصل أمّتنا هو تاريخها ، وتاريخها هو إسلامها ، وإسلامها هو سرّ بقائها ، وبقاؤها رهن بعودتها إلى إسلامها

هذه في الأصل بديهية .. ولكنّ البديهيات يحسّ بها من أفلت فكراً وإحساساً من الدوران في الحلقة المفرغة ، ومن تعليق الآمال بمن أثبتت التجربة ألاّ أمل يرجى منهم ومن سبلهم المتشعّبة

هذه بديهية .. ولكن لا يكفي إحساس المسلم المخلص بها أنّها بديهية ، وهو لا يزال من حيث لا يشعر يعـــيش أيضاً في روح مايو ويونيو بواقعه على الأقل ، وإن كان يعيش بعواطفه وعقيدته في روح رجب الكريم

لا بدّ إذا أردنا أن نصل بين تاريخنا ومستقبلنا ، بين أصل قضايانا .. وصناعة الأحداث المؤثّرة في مجراها ، بين ما كانت عليه أمّتنا في عهد فتح فلسطين وتحرير فلسطين .. وبين ما ينبغي أن تكون عليه أمّتنـــا ليتحقّـــق التحريـــر في فلسطين وفي كلّ أرض إسلامية سوى فلسطين ، بين ماضٍ مجيد ومستقبلٍ منشود .. لا بدّ لنا من ثورةٍ حقيقية علـــى أنفسنا أوّلاً ، ننتزع بها أنفسنا من الواقع المريض حولنا ، ومن أعراض الإصابة المرضية الشاملة لكثير من جوانب حياة أمّتنا .. حتى نتمكّن ونحن نستمدّ القوّة من تاريخنا والعبرة من واقعنا من أداء الدور المنتظّر من شباب هذا الجيـــل في الدرجة الأولى ..

إذا استطاعت النخبة من هذا الشباب ، أن تعيش في واقعها حياةً تصل ما بين تاريخ أمّتها ومستقبلها .. وكانت هذه النخبة من الشباب على جانب من قوّة العقيدة التي فتحت فلسطين وحرّرت فلسطين في الماضي ، وعلى جانب من الوعي والبصيرة إزاء الأحداث المعاصرة لها في الحاضر ، وعلى جانب من القدرة على الربط بين الذكرى والهدف بعمل دائب مخطط ، وعلى جانب من الاستعداد للبذل والتضحية والصبر على طول الطريق وتبعاته .. آنذاك تتحـــدّد معالم بداية الطريق من جديد أمام هذا الجيل المسلم ، وآنذاك يتجاوز هذا الجيل المنعطف ليسير في الطريق الموصلة إلى التحرير في فلسطين .. وإلى النصر في كلّ ميدانٍ من الميادين ، وآنذاك فقط يصبح عامل الزمن مصدر قوّة لا مـــصدر خوفٍ من وقوع المزيد من النكبات

* * *

روح مايو ويونيو فرضت على الكثيرين أن يتلقّوا الكلام فيبقى كلاما ..

وروح رجب الكريم .. قادرة إذا عشنا فيها كما عاش محمد ﷺ دعوة وصبراً وجهاداً أن تجعلنـــا مـــن الـــذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه